

Envision in Science fiction in "The Call of the Sad Land"

Dr. Talal Hassan^{*}

(Received 11 / 2 / 2020. Accepted 2 / 6 / 2020)

□ ABSTRACT □

Pertaining to time, place, style, narrative strategies, *The Calls of the Sad Land* is a good example of science fiction. It represents the style employed by Dr. Talib Omran in his creative writings.

The novel published in 2015; the time -covered- extends from 2020-2030. This indicates that the novel has a futuristic, visionary concept including everything the coming time has for us. As such, envision was the basic technique that worked together with other techniques to produce this complete novel. As such it contained the elements of suspense and excitement.

The research stresses that the writer, when he gives full reign to his imagination, he retains a thin thread that connects him with reality. The novelist's status, with all its strange, extraordinary, exciting, is not remote from the writer's life while writing his novel. This would be the problematic reality, that he lost hope of overcoming it. He started to envision solutions through scientific and technical development that could purify people's minds and remove them from the snares of evil. There lies the hope that goodness will survive victorious thanks to the help of other planets' inhabitants. Those seem more developed, more pure and more enthusiastic to confront evil mushrooms everywhere.

The research confirms that that novel depended to a great deal on far-fetched images, but at the same time the novel connected these images with science that prevented it from swerving to myth or fantasy.

Key words: Science Fiction Literature Calls Envisioning

^{*} Assistant Professor, Dept, Of Arabic, Faculty Of Arts, University of Tishreen, Lattakia, Syria.

الاستشراف في أدب الخيال العلمي. رواية " نداءات الأرض الحزينة " د. طالب عمران أنموذجاً

د. طلال محمد حسن*

(تاريخ الإيداع 11 / 2 / 2020. قبل للنشر في 2 / 6 / 2020)

□ ملخص □

تُعدّ رواية "نداءات الأرض الحزينة" أنموذجاً مثالياً لأدب الخيال العلمي من حيث الزمان، والمكان، والتقنيات الروائية المستخدمة، وهي تمثل الأسلوب الذي ينتهجه د. طالب عمران في كتاباته الإبداعية. صدرت الرواية في دمشق عام 2015، أما زمنها الروائي فيمتد بين عامي 2020-2035. وهذا مؤشر على أنّ الرواية تمثل تصوراً مستقبلياً رؤيائياً استشرافياً لكل ما يمكن أن يحمله الزمن الآتي. من هنا كان الاستشراف هو التقنيّة الأساس التي جمعت تقنيات الكتابة الروائية الأخرى وأنتجت لنا هذه الرواية المكتملة، ومن هنا أيضاً اتسمت بطابع التشويق والإثارة. يؤكد البحث أن المؤلف حينما يطلق لخياله العنان يُبقي خيطاً دقيقاً يصله بالواقع المعيش، فليس الواقع الروائي بكل ما فيه من غريب، وعجيب، ومدهش، وخارق ببعيد عن حياة المبدع خلال السنوات التي أنتج فيها روايته، ذلك الواقع الإشكالي الذي كاد يفقده الأمل بالتغلب عليه. فدفعه لاستشراف حلول عبر التطور التقني العلمي الذي يمكن أن ينقي عقول الناس المتوحشين فيخلصهم من الشر، على أمل أن ينتصر الخير بمساعدة من سكان الكواكب الأخرى الذين يبدوون أكثر تطوراً ونقاءً من سكان الأرض، وأكثر حماسة للوقوف في وجه الشر الذي صار ينمو كالفطر. ويخلص البحث إلى أن الرواية اعتمدت كثيراً على الشطحات البعيدة في الخيال، ولكنها في الوقت عينه ربطت هذه الشطحات بالعلم الذي حدّ من انحرافها باتجاه الأسطورة أو الفنتازية.

الكلمات المفتاحية: نداءات الخيال العلمي الأرض الحزينة الاستشراف

* مدرس، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية

مقدمة:

تختلف آراء النقاد، ودارسي الأدب في تحديد مصطلح أدب الخيال العلمي، حيث يمكن أن نلاحظ الاختلاف والتباين في التعريف، وفي النشأة، وفي العلاقة بينه وبين أنماط الكتابة الأخرى.

لذلك كان من الصعب الاتفاق على تعريف واحد محدد وواضح لأدب الخيال العلمي، فهناك من وجد له جذوراً ضاربة في القدم حيث ارتبطت بداياته بالخرافات والأساطير في المراحل المبكرة من مراحل الطفولة البشرية، وهناك من رأى أن أدب الخيال العلمي أدب حديث النشأة، تطوّر ونما في أحضان العقل البشري وتطوّر أنشطته العلمية الحديثة.

إنّ الكلام السابق يدلّ على خلط واضح بين أنماط عديدة للإبداع الأدبي، وخاصة الأسطورة والفتنازيا والخرافة. ولذلك كان من الضروري الوقوف على ما ذكرته معاجم المصطلحات الأدبية حول هذا المصطلح. ففي معجم "مصطلحات العربيّة في اللغة و الأدب" نجد أن المؤلفين يشيران أولاً إلى ارتباط هذا النمط من الكتابة الأدبيّة، جزئياً أو كلياً، مع موضوعات الغرائب والخرافات والمخاطر. ولكن هذا الكلام يفتح الباب أمام إدخال أعمال أدبيّة ضاربة في القدم ضمن هذا النمط من الكتابة مثل: "الأدويسة" لهوميروس و"الكوميديا الإلهيّة" لدانتي وغيرهما. لأنها أعمال مبنية أساساً على الخيال الخارق وعلى العجائب والغرائب والمخاطر؛ ولكنهما يعودان ثانية إلى تحديد أكثر ضبطاً حيث يعرفانه بـ "أنه ذلك النوع من الأدب الروائي الذي يعالج بطريقة خيالية استجابة الإنسان لكلّ تقدّم في العلوم والتكنولوجيا، ويعتبر (يعدّ) هذا النوع ضرباً من قصص المغامرات، إلّا أنّ أحداثه تدور عادة في المستقبل البعيد، أو على كوكب غير كوكب الأرض، وفيه تجسيد لتأملات الإنسان في احتمالات وجود حياة أخرى في الأجرام السماوية، ولهذا النوع من الأدب قدرة على أن يكون قناعاً للهجاء السياسي من ناحية، وللتأمل في أسرار الحياة والإلهيات من ناحية أخرى⁽¹⁾.

إنّ ما ورد في التحديد السابق للدلالة الاصطلاحية يظهر حداثة هذا النمط من الكتابة، ويظهر أيضاً ارتباطه بالتطور العلمي التقني والتكنولوجي، وكذلك طابع المغامرة، ولكنه في الوقت عينه يترك مسافة واضحة بين أدب الخيال العلمي والفتنازيا الأدبيّة التي حددها د. سعيد علوش بأنها: "عمل أدبي يتحرر من منطق الواقع والحقيقة في سرده، مبالغاً في افتتاح خيال القراء"⁽²⁾، ولكن هذه المسافة الواضحة لا تنفي وجود تقاطعات بين هذين النمطين من الكتابة.

وأهم هذه السمات المشتركة الإثارة والإدهاش. وربما نعثر على هاتين السمتين في الأسطورة أيضاً لأنها تحتوي على عناصر لا تتسجم مع مقتضيات الواقع والعقل، إلّا أنه يختلف عنها (عن الأسطورة) من حيث المنهج والوظيفة⁽³⁾.

فالأسطورة تتحدث عن تاريخ مقدّس، أو أحداث وقعت في أزمنة غابرة، في مرحلة مبكرة من مراحل الوعي البشري، هي أزمنة البدايات العجيبة، وتستعرض كيف قامت كائنات غريبة عظيمة خارقة بإنتاج واقع إلى حيز الوجود. وهي عندما تسرد الخبر التاريخي إنما تقدمه على أساس أنه موجود، وصحيح، ودقيق، كونه نتاج قدرة هائلة محاطة بهالة من الغرابة والدهشة. ويمكن أن نعثر في الكتب الدينيّة السماوية والوطنيّة مثل القرآن والإنجيل والعهد القديم وغيرها على حكايات كثيرة وقصص غريبة ومدهشة مثل: قصة الإسراء والمعراج وقصة أهل الكهف وغيرهما.

¹ - وهبي، د. مجدي، والمهندس، كامل: معجم مصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت 1979، ص 105.

² - علوش، د. سعيد: معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 170.

³ - ينظر: سكولز، روبرت وآخرون: آفاق أدب الخيال العلمي، ترجمة حسن حسين شكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996 وما بعدها، ص 139.

أهمية البحث وأهدافه:

يسعى البحث للوقوف على سمات مميزة لأدب الخيال العلمي، ولأنه خيال، ولأنه علمي كان لا بد من إيلاء أهمية كبرى لتقنية الاستشراف، وهي أهم التقنيات الروائية في هذا النمط من الإبداع الأدبي. من هنا تأتي أهمية هذا البحث، فهو دراسة لأدب لم ينل الاهتمام الكافي من النقاد والباحثين، وهو يتناول بشيء من الشرح والتحليل هذه التقنية في عمل روائي حديث يمد خيطاً دقيقاً يصل بين الخيال والواقع، ويكاد يتنبأ بما يخبئه الزمن القادم لنا من مفاجآت، وهو يؤكد أن هذا الخيال العلمي ما هو إلا قناع يتخفى المبدع خلفه ليحبر عن قناعاته وموقفه الفكري من القضية التي شكلت هاجس الكتابة لديه، وليتحرر من القيود والعوائق من قوانين وضوابط دينية أو اجتماعية أو سلطوية.

أما المنهج المتبع فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يسمح بفتح حوار أكثر عمقاً مع النص، ومنح مسافة واسعة للوقوف على الأحداث، من دون أن يهمل المناهج النقدية الأخرى وخاصة المنهج النفسي.

الاستشراف في أدب الخيال العلمي:

يكاد يتفق الباحثون على أن أعمال الكاتبتين: جول فيرن، وهربرت جورج ويلز تُعدّ نقطة البداية لهذا النمط من الكتابة، على الرغم من وجود إرهاصات سابقة لمبدعين آخرين، حيث "هيمن الكاتب الفرنسي جول فيرن على الساحة الأدبية لمدة عشرين عاماً نظراً لغزارة أعماله التي بلغت الثمانين عملاً"⁽⁴⁾.

لقد كان هذا الكاتب منبهرًا بالتقدم العلمي حتى نما لديه فضول لاستشراف المستقبل في ضوء هذا التطور التقني الذي شهده عصره "وتعد روايته "من الأرض إلى القمر" أول رواية علمية حول السفر في الفضاء. ولقد ذهب بعض العلماء إلى اعتبار الرواية بحثاً علمياً، وليس عملاً أدبياً"⁽⁵⁾.

أما في الأدب العربي فيُعدّ الكاتب توفيق الحكيم رائداً لأدب الخيال العلمي، وتعدّ مسرحية "رحلة إلى الغد" واحدة من أشهر أعماله، حيث ينطلق صاروخ فضائي يحمل رجلين حُكم عليهما بالإعدام وهما طبيب ومهندس، وبعد اجتياز مسافة شاسعة تبدأ مفاهيمهما عن الخير والشر، الموت والحياة، الحب والكراهة بالتغيير والتبدل، وعندما يصطدم الصاروخ بكوكب غريب يهبطان منه وقد ولدا شخصين جديدين لا يعرفان القيود الموجودة في حياة الأرضيين، ولا الحاجات الأساسية والدوافع، وبذلك نالا الخلود. ولكن هذا الأمر لم يرق لهما حيث حنّا إلى الموت فقررا إصلاح الصاروخ والعودة إلى الأرض التي وجداها وقد تغيرت معالمها وتبدلت ولكنها حافظت على الصراعات السياسية⁽⁶⁾.

إلى جانب توفيق الحكيم وجد عدد من الكتاب الذين قدموا قصصاً وروايات ومسرحيات تندرج ضمن أدب الخيال العلمي نذكر منهم: نهاد الشريف الذي اقتصر إبداعه على أدب الخيال العلمي، حيث كتب ست روايات، وثمان مجموعات قصصية تحدث فيها عن الخوف من نشوء حرب كونية تقضي على البشرية كلها، وهناك أمر لافت آخر في أعماله هو موضوع الاحتفاظ بالجسم البشري مبرداً من أجل بث الحياة فيه ثانية في المستقبل، وقد يكون هذا هو الحل الأمثل لانتظار التطورات العلمية الطبية لاكتشاف علاج لأمراض مستعصية الآن⁽⁷⁾.

⁴ - عياد: د. محمد عبد الهادي وعياد، د. كوثر: أدب الخيال العلمي، جامعة دمشق، 2015، ص12.

⁵ - عياد، د. محمد عبد الهادي وعياد. د. كوثر، مصدر سابق، ص13.

⁶ - ينظر: الحكيم، توفيق: رحلة إلى الغد، سلسلة الكتاب الفضائي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1958.

⁷ - ينظر: الشريف، نهاد: بالإجماع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990، ص90.

وهناك أسماء أخرى في مصر مثل: فتحي غانم، وإيهاب الأزهري، مصطفى محمود، وفي الكويت طيبة إبراهيم، وفي السودان جمال عبد الملك.

أما في سوريا فيعدّ د. طالب عمران أباً حقيقياً لأدب الخيال العلمي، فقد كتبه إبداعاً، وساهم في نشره مساهمة لاقتة في مجلة متخصصة بهذا النوع من الأدب يشرف على إصدارها بالتعاون مع جامعة دمشق، وأيضاً عبر برامج إذاعية وتلفزيونية.

ولقد تناول في رواياته وقصصه سعي الإنسان الدؤوب للسيطرة على الكون، وفي محاولته إيجاد ملجأ له خارج الكرة الأرضية التي امتلأت ظلاماً وجوراً. وهو يقدّم الأرض على أساس أنها المنطلق لرحلات إلى الكواكب الأخرى من ناحية، ومن ناحية أخرى مهبط للزوار القادمين من كواكب أخرى، يساعده في ذلك معارفه العلمية، وثقافته الفلكية التي جعلته قادراً على التنقل بمرونة وسلاسة بين المجرات والكواكب. وغالباً ما يقدم لنا كائنات فضائية آتية من أجل التعارف، ومن أجل الإنذار بكواريث وبخرباب قادم، أو من أجل الحفاظ على كوكبنا، ومساعدة الخير في مواجهة الشر⁽⁸⁾. ولذلك كثيراً ما نرى عنده صورة سكان الكواكب الأخرى أكثر رحمة وطيبة وذكاء ومعرفة من سكان الأرض "وحتى الحيوانات التي كان يرسلها علماء الأرض إلى تلك الكواكب كانت تعود وقد تطور ذكاؤها أضعافاً"⁽⁹⁾

ويلجأ الكاتب في كثير من أعماله إلى تقنية الاستشراف حيث يشكل الزمن الروائي جزءاً من المستقبل غير البعيد، فالزمن الروائي لرواية الأزمنة المظلمة، 2018، وهي تصور تداعيات أحداث 11 أيلول، عندما تم تدمير برج التجارة العالمية في نيويورك، وفيها إشارة إلى منظمات صهيونية واستعمارية تعمل على استثمار الحدث من أجل تحقيق أكثر منفعة ممكنة مستخدمة كل الوسائل المتاحة، وهذا أمر يبدو أنه يؤرق د. طالب لذلك نجده يكرره في أكثر من رواية ومنها الرواية موضوع البحث.

إنّ أدب الخيال العلمي يحيلنا دائماً إلى عوالم أخرى في المكان وفي الزمان، ولكن الوصول إلى هذه العوالم الأخرى ينبغي أن يخضع للمنطق العلمي، هي عوالم يشيدها الخيال، ولذلك يحتاج الإنسان إلى مركبة فضائية، أو قدرة على تطويع الزمن في وثبات قد تكون باتجاه الآتي، وقد تكون باتجاه الأزمنة الغابرة "لإعادة قراءة التاريخ ونقد المجتمعات الماضية والمعاصرة"⁽¹⁰⁾.

وهكذا ظهر نمط جديد من الأدب، قائم أساساً على الخيال، على ما يمكن للعلم أن يحدثه من تطورات إيجابية قد تتفقد البشرية، أو من كوارث ونكبات إذا أسيء استعماله، وغالباً ما نقرأ في هذا الأدب محاكمة للحاضر وتحذيراً من المستقبل، هذا يؤكد أن كاتب أدب الخيال العلمي الاستشرافي إنسان ملتزم بقضية ما، وهذا الهم ليس همّاً فردياً، بل هو همّ جماعي إنساني، قضيته الأساس التي يزود عنها هي الحياة، ولذلك يُفترض فيه أن يمتلك المعرفة والوعي، وأن يتمتع بحساسية وقدرة على استشراف الآتي وهذا ما جعله يخشى انحراف العلم عن طريق الخير وهناك أمثلة كثيرة مثل التلاعب بالجينات الوراثية للإنسان وبالأدمغة البشرية وغير ذلك من الأمور التي سمعناها في حياتنا وقرأناها في قصص عديدة. وهي حاضرة في رواية نداء الأرض الحزينة.

الاستشراف في "نداءات الأرض الحزينة"

⁸ - ينظر: عزام، محمد، خيال بلا حدود، طالب عمران رائد أدب الخيال العلمي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000، ص222.

⁹ - عمران، د. طالب: فضاء وحيد كالحلم. دار الفكر المعاصر، دمشق 1997

¹⁰ - عياد، د. محمد عبد الهادي ود. عياد، كوثر: أدب الخيال العلمي، ص48.

التعريف بالرواية: هي رواية تقع في مئتين وسبع وثلاثين صفحة، وتقسم إلى خمسة عشر قسماً لكل منها عنوان خاص، تبدأ بسنوات المرارة والقهر، وتنتهي بألغاز ليست قابلة للكشف. تبدأ الأحداث عندما تتعطل سيارة النقل التي تقل عفاف، الفتاة التي تريد زيارة جنتها، تغادر السيارة في جو شديد البرودة، وتقرر متابعة السير مشياً على الأقدام، وعليها أن تجتاز حوالي الثلاثمائة متر داخل الأحراج الكثيفة قبل الوصول إلى بستان الجدة، ولكنها تتعثّر وتتدحرج، وقبل أن تغيب عن الوعي شعرت بيدٍ تمسك بها. إن تأخرها يقلق الجدّة ويزيدها قلقاً أن نتيجة بحثها عن الصبيّة كانت صفراً. لقد تعذر إيجادها ولكن رسالة تخاطريّة مجهولة المصدر سكّنت روحها. وعندما تصحو عفاف تجد نفسها في كهف مع شيخ عجوز كفيف، إنه فارس النعيمي الشخصية الرئيسة في الرواية. وهو يحدثنا عن معاناته الفردية والأسرية في طفولته، لقد فقد كلّ أفراد أسرته، ثم فقد بصره بسبب ظلم سليمان بيك وبطشه. فهرب منه إلى عالم الحيوان حيث وجد الأمان والحب والإخلاص والارتقاء الروحي. يقضي وقته في الكهف يخرج في بعض الأحيان ليجمع بعض النباتات المفيدة ليأكلها. ويندمج في الكون أكثر ويتواصل مع المحيط فيتجاوز طاقة البشر العاديين حيث يمتلك مهارة التواصل مع الحيوان والنبات ويكتسب القدرة على التخاطر مع الآخرين وعلى ترحيل المادة عبر الطاقة، وإنشاء شبكة مغناطيسية تفعل فعلها في المحيط فتحمي من الأشرار وتتيح له الفرصة للالتقاء بالأغيار، أي مع سكان الكواكب الأخرى عبر الطاقة التي امتلكها أعلن عن سعيه لمواجهة الشرّ بالخير أينما وجد، فهزم الأفعى العملاقة، وواجه قاطعي الرقاب، وأقذ كل من استطاع إنقاذه من براثن الشر حتى إنه طلب المعونة من سكان الكواكب الأخرى لمحاربة الوحوش الذي بدأ ينمو كالفطر وهو في حياة العزلة هذه تعرف إلى الخالة مريم وابنتها بسمّة والحفيدة عفاف.

لو أمعنا النظر قليلاً في هذه الرواية لرأينا أن معظم سمات أدب الخيال العلمي الاستشرافي متوافرة فيها.

حيث إن الزمان الروائي مستقبلي يمتد لسنوات قليلة قادمة، فالرواية نشرت في عام 2015، أما الزمن الروائي فهو بين عامي 2020-2027م ففي الفصل الموسوم بـ زوار من المريخ يحدّد الكاتب الزمن الروائي بـ 2020. أي أن الأحداث تجري في زمن قادم فهل كان خروجه على الحاضر شكلاً من أشكال الهروب منه؟ أم أنه وسيلة لقراءته قراءة صحيحة؟

الأمر اللافت في أعمال د. طالب عمران هو أنه في كثير من الأحيان كان يربط كتاباته بحدث كبير، داخلي أو خارجي، وهو غالباً يعيد قراءة الحدث ويسعى للكشف عما يمكن أن تؤدي إليه الأحداث المحيطة، وإذا كان في رواية "الأزمان المظلمة"⁽¹¹⁾ التي صدرت عام 2003 ولكن زمنها الروائي هو 2025، قد تناول أحداث الحادي عشر من أيلول، وما تبعها من احتلال الكويت، ثم غزو العراق، فإنه في "نداءات الأرض الحزينة، إنما يتحدث عن موجة الوحوش الغريبة التي تعيشها بلداننا وفق ما سمي بـ "الربيع العربي"، وتحديداً ما يجري في وطنه سوريا، حيث تقاطعت مصالح الأعداء الخارجيين مع أحلام القتل والمتطرفين فأعادوا إحياء أفكار التطرف والتكفير تحت عناوين متعددة، وبذلك تبدو لنا واضحة صورة المؤلف الملتزم بقضية وطنية وإنسانية، حاملاً راية الخير، مدافعاً عن الحياة دفاعاً من يعي مصدر الخطر، ويدرك إلى أي مدى يمكن أن تصل الأمور. لذلك فإنه حين يتحدث عن قاطعي الرقاب وحملة السواطير والفؤوس والمناجل. إنما يتحدث حديث من يعرف أنهم أدوات ليس غير. وحتى الزعيم المسؤول الذي أمر باختطاف مصعب الصحفي النقي، وإرهابه من أجل أن يكتب عنهم ما يريدون، لم يكن، وفق رؤية فارس، إلا "منفذاً لرغبات قوة عظمى تخطط للسيطرة على البشر والحجر في الكوكب .. ويعمل مع هذا الزعيم بعض ممن اختزنوا

¹¹ - ينظر: عمران، د. طالب، الأزمان المظلمة، دار الفكر المعاصر، 2003.

السلطات المحلية بأناس يعملون لصالح القوة العظمى وعينوا كمسؤولين عن قرارات مصيرية تتعلق بالإنسان، إضافة إلى حملة السواطير والبلطات⁽¹²⁾ ويعود ليؤكد ثانية أنه "مجرد أداة ينفذ ما تريده الجمعيات المتحكمة بمصير البشرية من البنائين الأحرار، مهما اختلف تسمياتها، وهي بدورها تسيطر على القوة العظمى"⁽¹³⁾.

والروائي إذ يستشرف الزمن الآتي لا يتخلى عن الواقع، بل يمدّ خيطاً رفيعاً يسير عليه ليصل بين زمنين، وليقرأ الحاضر بعيون أكثر قدرة على الإبصار، وها هو يتحدث عن المستقبل، يرينا حاضراً، وخاصة حين يصف هؤلاء القتل المتوحشين⁽¹⁴⁾ إنهم ليسوا أسطورة، إنهم يعيشون بين ظهرانينا، ليسوا أوهاماً، شعارهم القتل وتقطيع الجثث، إنهم قساة متوحشون لهم عقائد خاصة، يؤمنون أنهم الوحيدون الذين يطبقون الشرائع التي تقرهم إلى الله، وأن الآخرين هم الكفرة الفجرة الذين يستحقون الاستعباد، وربما القتل بقطع الرؤوس وتقطيع الأجساد⁽¹⁵⁾. أما ملامحهم وتقاطيع وجوههم فلا تبدو غريبة عما نشاهده عبر شاشات الإعلام المرئي وهي تبث أخبار الأحداث اليومية لوطنتنا. "يا إلهي .. سحناتهم غريبة ومرعبة، وشعورهم الطويلة، وذقونهم الكثة، وثيابهم القديمة..."⁽¹⁶⁾. وهو يشبههم بالفايكنغ وهم متوحشون أوروبا " في زمن العصور السوداء الذين كانوا يغيرون على الثغور فينهبون ويقتلون، ويقطعون الرقاب ويغتصبون، ويعودون بغنائمهم إلى بلدان الشمال حيث فصل البرد يمتد لتسعة أشهر، يتلهون بما غنموه حتى تحين إطلالة الصيف الجديد"⁽¹⁷⁾. فهل أراد الإشارة هنا إلى أن القتل في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة يحملون هوية واحدة أياً تكن انتماءاتهم الإثنية أو الدينية أو الزمانية أو المكانية؟؟ وهل أراد أيضاً التنبيه على أن الخطر محقق بالجميع لأن الشر بلا حدود، وهو يهدد الجميع، وفي زمن تطور العلم والتقنيات أصبحت القدرة على الأذى أكبر بكثير، لأن استخدام العلم والتكنولوجيا خارج إطار الخير يمكن أن يدمر الأرض أكثر مما يمكن أن تدمرها الكوارث الطبيعية، وهو يقدم عبر صفحات كثيرة تفصيلاً لمحاولات تسخير التطور العلمي للدمار وليس للبناء، وذلك عندما يتحدث عن المختبرات الحديثة المتطورة التي تحتضن تجارب حية لعمليات نقل الأعضاء البشرية والتلاعب بالجينات، ومحاولات استنساخ أنموذج بشري جديد يمتلك قوة الدب الطاغية، ولقد اختاروا لذلك أستاذاً جامعياً متفوقاً للتلاعب بجيناته فأعطوه حقنة فيها أنزيمات خلايا وصبغيات من أقوى الدببة، ولذلك تكاد أعصابه تنفجر فيبدأ بضرب القفص الحديدي المخصص أصلاً للدببة حتى يتداعى، ويخرج الشاب يصرخ كالمجنون ليذمر كل شيء من أجهزة وأدوات⁽¹⁸⁾.

وهناك أقسام أخرى كثيرة تحت الأرض: "قسم لغسيل الأدمغة، وقسم للعلاج النفسي، وقسم لتحريك نماذج حيّة عن بعد.. وقسم لزراعة الأعضاء البشرية والأعضاء الحيوانية المشابهة وأقسام للتغيب والاستنطاق"⁽¹⁹⁾.

إن التطورات التقنية والعلمية فتحت صفحة جديدة في أبحاث مشابهة لما تحدّثت عنه الرواية وهذا دليل واضح على أن "ما يتميز به أدب الخيال العلمي هو أنه يحاول أن يبقى منسقاً مع النظريات العلمية دون الاستعانة بقوة خارقة أو سحرية، وهذه خاصية تميّزه عن الفنتازيا"⁽²⁰⁾.

¹² - عمران، د.طالب، نداءات الأرض الحزينة، ص 215.

¹³ - المصدر السابق، ص 218.

¹⁴ - المصدر السابق، ص 64.

¹⁵ - المصدر السابق، ص 68.

¹⁶ - المصدر السابق، ص 43.

¹⁷ - ينظر، عمران، د.طالب، نداءات الأرض الحزينة، ص 125 وما بعدها.

¹⁸ - المصدر السابق، ص 177.

إن كتاباً كثيرين لأدب الخيال العلمي يرون أن الإنسان على هذه الأرض ليس وحيداً، بل هناك مخلوقات أخرى تقاسمه الوجود، ولقد تعددت رؤية هؤلاء الكتاب لهذه الكائنات، فمنهم من قدمها بشكل مختلف، فقد تشبه حشرة شديدة التعقيد، وقد يثيرون الرعب أو القرف، ومنهم من قدمها بصورة قريبة جداً من الإنسان.

يبدو أن الدكتور طالب عمران مؤمن بحقيقة الأطباق الطائرة وهذا أمر وجدناه عنده في أكثر من عمل مثل: رواية "خفايا النفس البشرية"⁽²⁰⁾ وكذلك في الرواية موضوع الدراسة "نداءات الأرض الحزينة"، حيث تطرق عجوز باباً في الليل طالبة المساعدة فقد تعطلت السيارة التي نقلها، ويوافق صفوان على مرافقتها بعد جدال طويل، وهناك تقول له: "نحن كائنات من خارج الأرض وتعرفه بمن في السيارة، هذه جالا قائدة هذه المركبة، نحن من الكوكب الأحمر، جاركم الأقرب، ادخل المركبة نحن مسالمون ولا نعرف العدوان.. اطمئن يا بني لسنا نعرف العداوة ولا الغدر..⁽²¹⁾ ومن الحديث معها يعرف أنهم يريدون أن يتعمقوا أكثر في عالمنا، وأنهم قرؤوا مخزون أفكاره وعذاباته وعرفوا إيمانه بالسعي لتحقيق الحب لكوكب هجره الحب، وهم يريدون شحن المركبة بطاقته الإيجابية.

إن هذه الكائنات الغريبة، أو "الأغيار" كما يطلق عليهم أدباء الخيال العلمي، لا تأتي غزياً إنما تأتي وتمدّ يدها لمساعدتنا، لتجاوز أزماتنا ومعاناتنا، ففتحت عيوننا حتى نرى بشكل أكثر دقة، أو أنها تتدخل بشكل غير مباشر إلى جانب الخير في مواجهته قوى الظلام.

وها هو صفوان بعد أن صعد مع الكائنات المريخية يصبح أكثر قدرة على الرؤيا، وعندما تهبط المركبة في مزرعة أحد أقطاب من يحكمون العالم ينطلق مع رفاقه وقد صارت أجسادهم مخفية فيدخلون قاعة الاجتماعات، حيث يجتمع البناؤون الأحرار "الماسونيون" لسمع صوت السيد الذي يتحدث "يجب أن نظل متكافئين ونستغل منابع الثروة دون أن نلقي بالاً للشعوب.. هذه الشعوب المحكومة بالقهر يجب أن تظل ضائعة، حكامها رغم أننا غيرناهم بأشكال جديدة محببة، فهم أكثر تبعية لنا من الذين قبلهم"⁽²²⁾.

اللافت أن مآسي سكان الأرض تنثر مشاعر سكان المريخ وتدفعهم للتفكير في إيجاد وسائل تخفف الشر والألم، وهذا ما دفع جالا للتحدث إلى فارس بالقول: "سنحاول السيطرة على عقول القادة والزعماء والسلطين وتابعيهم، ومسح العنف والظلم من أذهانهم.

- غسل أدمغتهم؟ هذا ما حاولوا القيام به معي.

- ولكننا نمسح الشر من الأذهان ونبقي الخير"⁽²³⁾.

إن في العبارة الأخيرة إشارة واضحة إلى الفرق بين حدي العلم كسلاح للخير أو كأداة للشر، بين من يغسل الأدمغة ليمحو الخير، ومن يغسل الأدمغة ليمحو الشر ويبقي الخير.

وتقرر جالا اصطحاب الشيخ الكفيف فارس إلى الكوكب الأحمر فترة حتى تهدأ الضجة الإعلامية الكبيرة التي حاولت تشويه صورته وتقديمه كمجرم وقاتل، لقد كان سعيداً لأنه سيرتاح، وحزيناً لأنه سيترك ذنابه.

¹⁹ - عياد، د. محمد عبد الهادي وعياد، د. كوثر: أدب الخيال العلمي، ص 55.

²⁰ - ينظر، عمران، د. طالب، خفايا النفس البشرية، وزارة الثقافة، دمشق، 1994.

²¹ - عمران د. طالب، نداءات الأرض الحزينة، ص 101.

²² - عمران د. طالب، نداءات الأرض الحزينة، ص 105.

²³ - المصدر السابق، ص 231.

وهكذا تبدو صورة سكان الكواكب الأخرى إيجابية، بعيدة عن العدوانية والتوحش، تملك الكثير من المشاعر الدافئة والقيم النبيلة، ويمكن أن نقرأ في الرواية كلاماً كثيراً عن علاقة الحب التي نمت بين صفوان وتالا حيث يستقبلان في المريخ استقبلاً خاصاً، وتقام مراسم الزواج بنظام وترتيب: زهور وموسيقا وشهر عسل. إنه وصف شاعري دافئ لحب نشأ بين قلوبين مختلفين.

هكذا رأى الدكتور طالب عمران سكان المريخ أشكالهم أقرب إلى سكان الأرض لا يعرفون الشر، يعيشون الخير ويسعون لكي يطال الآخرين أيضاً. لذلك تجدهم يستقبلون الهاربين من البطش والجحيم من سكان الكواكب الأخرى. إذا كان الاستشراف هو أحد الأسس التي بني عليها أدب الخيال العلمي فإن الزمن في كثير من الأحيان هو الذي يحدد طبيعة هذا الاستشراف ونوعه، فإذا كان الزمن محدوداً أو قريباً فإن موضوع الاستشراف يكون غالباً نوعاً من نقد الواقع الراهن، وهي آلية فنية يستطيع الكاتب بواسطتها التخلص من الرقابة، بحيث يستطيع قول ما يريد بحرية وبعيداً عن الخوف من أية سلطة كانت، أما إذا كان الزمن بعيداً فغالباً ما يكون الغرض منه لفت نظر الناس إلى قضية من القضايا التي تؤرق الكاتب، ويمكن أن تؤدي إلى مخاطر كبيرة تتجاوز حدود الفرد إلى الإنسانية كلها.

في رواية "نداءات الأرض الحزينة" يتحدد الزمن الروائي بين عامي 2020-2037 أما زمن الكتابة فهو 2015 أي أن الزمن الاستشرافي قريب أقل من عشرين سنة لذلك ليس غريباً أن نرى فيها أموراً كثيرة من معطيات الواقع وأحداثه، وأن نسمع في حوار شخصياتها الفنية أصداء لما يدور بيننا، فواقعنا الذي نعيش فيه لا يبدو غريباً عن الواقع الفني المتخيل، والمبني بالمفردات اللغوية في متن الرواية. وحتى الأحلام التي تشكل جزءاً من البنية الروائية فيها، وهي بطبيعتها لأنها أحلام تنمرد على الزمان والمكان والمنطق فتبدو أكثر إدهاشاً، تحتفظ بلامح عديدة تذكرنا بالواقع المعيش حيث تختلط الأمور فيصير من الصعب التمييز بين الواقع والخيال وخاصة في أحلام عفاف التي ترويها لجديتها "رأيت حلماً مرعباً، أنا قلقة جداً، كانت مجموعة من حملة البلطات والسواطير، أغاروا على القرية، أنت كنت بين من أخذوهم من الأهالي.. كنا في حافلة صغيرة نتجه إلى القرية حين شاهدنا مجموعة من الأشخاص بوجوه غريبة يملكون أماناً وهم يحملون السواطير والبلطات والسكاكين⁽²⁴⁾ ثم نقرأ حكاية الشاب الذي حاول إخبار أهالي القرية وتنبههم من القتل فألقوا القبض عليه وأعطوه منجلاً ليكون معهم..

إن كل ما كانت تراه عفاف في أحلامها كان يتحول إلى حقيقة بعد حين "أترين يا جدتي ذلك المشوّه بعين واحدة، إنه الرجل الذي رأيته في حلمي، اسمه مركون، قطع رأس امرأة.. صرخ الزعيم مركون أين أنت؟.. إبدأ بقطع الأيدي والأرجل، هيا بسرعة⁽²⁵⁾..

إن أدب الخيال العلمي يثير أسئلة متعددة حول طبيعته لأنه يجمع متناقضين: أدب وعلم، خيال وعلم فما مدى صلة هذا الأدب بالعلم؟ وما الذي يمكن أن يقدمه لنا كقراء؟

تحاول الدكتورة سمر الديوب أن تقدم إجابات عن هكذا تساؤلات فتري أن "رواية الخيال العلمي خطاب سردي مبني على المعرفة وهو يعتمد على الخيال لبناء واقع متخيل يستمد بعض عناصره من الواقع المعيش ولكن هذا الأدب ليس أدباً بحتاً، إنه علمي بمعنى أنه يتناول حقيقة علمية تصور في قالب قصص معتمد على الخيال⁽²⁶⁾..

²⁴ - عمران، د. طالب، نداءات الأرض الحزينة، ص 38.

²⁵ - المصدر السابق، ص 90-91.

²⁶ - الديوب، د. سمر: مجاز العلم. دراسات في أدب الخيال العلمي، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2016، ص 75.

إن قارئ الرواية لابد أن يلحظ المعلومات العلمية الدقيقة، وخاصة عندما نتحدث عن كوكب المريخ إذ "إن سنة المريخ تختلف عن سنتكم، سنتنا نحو 625 يوماً... كلما ابتعد الكوكب عن الشمس أصبح دورانه أبطأ إلا أن الكواكب الغازية كالمشتري وزحل وأورانوس ونبتون" (27).

من المعروف أن الكاتب يقدم لنا رؤيته الخاصة عبر خطابه الروائي، وهي "رؤية تتمثل في العلاقة بين المؤلف والراوي وموضوع الرواية" (28).

إن الراوي يمثل شخصية يخلقها خيال المؤلف ويحملها وعيه وفكره ثم يتركها لتؤدي وظيفة محددة هي أن يمثل جسراً بين الروائي والرواية والمتلقي. "يملك الراوي إذن جزءاً من رؤية الروائي، ويحملها ضمن حدود معينة في السرد الروائي متتوياً في هذه الوظيفة مع الشخصيات الأخرى" (29).

في "نداءات الأرض الحزينة" يشدنا الراوي العليم بكل شيء، ومنذ البداية لنرافق عفاف في رحلتها وبجعلنا نقلق عليها كما قلقت جدتها ولكنه لا يلبث أن يترك الشخصيات تتحدث بلسانها تتحاور وتعرفنا بطبيعتها عبر حواراتها هذه، وعبر الوصف الذي يأخذ مدى واسعاً في العمل، وهو في خطابه هذا يقدم لنا العجائبي والسياسي والديني والفكري والعلمي. ويسعى المؤلف إلى الإفادة من الأجناس الأدبية الأخرى فيكسب الأفعال طبيعة درامية بفعل "تعدد أزمنتها بين الماضي والمستقبل، وتعدد حقولها بين حقل الفضاء والماء والعمق، ويقع التصادم بين السلب والإيجاب، والحرب والسلام، الحضارة والتخلف، فللتقابلات فاعلية في درامية اللغة والحدث والميل إلى جانب الشعرية بنقلها من التسطيح إلى التعقيد ومن أحادية البعد إلى ثنائية" (30).

في الرواية موضوع البحث - كما في معظم أعمال طالب عمران نلحظ جانباً من الصراع المتجدد دائماً بين الخير والشر، وهو صراع متعدد الجوانب ومتعدد الأطراف حيث يشارك فيه بالإضافة إلى سكان الأرض سكان الكواكب الأخرى "المريخ"، وبالإضافة إلى البشر تشارك الحيوانات "الذئاب" وأفعى الأناكوندا. واللافت أن هناك من الحيوانات من هو أكثر رحمة وشفقة وأخلاقاً من الإنسان فها هو فارس يجيب المرأة التي استكثرت حياته بين الذئاب قائلاً: "هي من حنّت عليّ وساعدتني وأبعدتني عن الخطر، ربما كانت أكثر صدقاً من بشر كثيرين" (31).

وهذا يتوافق مع تصوير "كليفورد وسيماك جنس الكلاب أعلى مرتبة من جنس البشر في روايته "غداً الكلاب" حتى إنها لتخلق بشراً فتحدثهم عن أصلها" (32).

إذا كان الاستشراف في أدب الخيال العلمي يمثل خروجاً عن المؤلف، أي هو زمن خارج الزمن، ومكان خارج المكان فهل يحتاج إلى لغة خارج اللغة؟ وهل تفرض لغة العلم وصايتها المطلقة عليه؟.

الذي لا شك فيه هو أن العلم الذي يعد المصدر الأساس لأدب الخيال العلمي ترك أثراً بيناً على لغة هذا الأدب فأضفى عليها طابع التسجيل الوثائقي حيث نصادف كثيراً من الأرقام والرموز والمصطلحات العلمية لدرجة أنه "في روايات الخيال العلمي تطالعنا لغة يمكن أن نسميها باللغة الوثائقية - إن صحّ التعبير، وهي لغة محملة بنقيضين هما: التطويل

27- عمران، د. طالب، نداءات الأرض الحزينة، ص 131.

28- يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 70.

29- الديوب، د. سمر: مجاز العلم، ص 84.

30- المصدر السابق، ص 51.

31- نداءات الأرض الحزينة، ص 31.

32- غايتينو، جان: أدب الخيال، ترجمة ميشيل خوري، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1990.

الجمالي والعبارة التفصيلية، مع الأسلوب التلغرافي (البرقي) الموجز للغاية، وفي الحالتين يتجلى الأسلوب بأدوات الوثائقية العلمية⁽³³⁾.

ثم يتابع الباحث التلاوي فيشير إلى اختفاء المحسنات الأسلوبية، والصياغة ذات الدلالة الإيحائية ليتناسب تماماً مع الرؤية المستقبلية التي يتوقعها كتاب روايات الخيال العلمي للإنسان المستقبلي الخالي من العواطف والمشاعر الإنسانية، ومن ثم جاءت العبارات في برودة غيبه المستقبل، ومعبرة عن آلية إنسان المستقبل وتجمد عواطفه، وتجمدت معها المحسنات الأسلوبية⁽³⁴⁾.

قد يكون هذا الكلام صواباً في روايات عديدة إلا أنه في رواية "نداءات الأرض الحزينة" ليس دقيقاً حيث نصادف فيها شخصيات دافئة وحنونة، إذ كيف يمكن لمن يحارب الشر أن لا يكون مشبعاً بالعواطف والأحاسيس، فهل يصح وصف العجوز الكفيف فارس بأنه متجمد العواطف وهو الذي يحمل حزناً بسعة الكون وأملًا بلا حدود.

وبماذا يمكن أن نصف الاحتفال الصغير المرتب للعروسين صفوان وتالا في كوكب المريخ احتفاءً بزواجهما؟⁽³⁵⁾ هكذا يبدو الخيال العلمي أساساً في بناء رواية "نداءات الأرض الحزينة" يحمل في داخله كل الأسس التي قام عليها هذا النمط الخاص من الأدب الذي يجمع متناقضين العلم والأدب من دون أن يفقد أي منهما سماته الرئيسية، حيث نصادف فيها المعلومات العلمية الدقيقة ونرصد إشارات واضحة إلى آفاق التطورات التكنولوجية، ولكننا في الوقت عينه نلمح السمات والخصائص الفنية من وصف وحوار وعاطفة وبناء درامي مسابير لتطور الأحداث التي تقدمها الرواية. ومن الطبيعي أن يكون الاستشراق هو العمود الفقري للعمل فالرواية رؤيوية والقضايا التي تطرحها قضايا إشكالية يعاني منها مؤلفها ويراها أكبر من أن يجد لها حلاً في الحاضر الذي يعيش فيه، لذلك يأخذنا إلى الزمن الآتي تاركاً خيطاً دقيقاً يصل بين الزمنين.

³³ - التلاوي، د. محمد نجيب: قصص الخيال العلمي في الأدب العربي، دار المتنبي (باريس، بيروت)، دون تاريخ، ص 155.

³⁴ - المصدر السابق، ص 158.

³⁵ - ينظر: عمران، د. طالب: نداءات الأرض الحزينة، ص 93، وما بعدها.

المصادر والمراجع

1. التلاوي، د. محمد نجيب: قصص الخيال العلمي في الأدب العربي، دار المتنبّي (باريس، بيروت)، دون تاريخ.
2. الحكيم، توفيق: رحلة إلى الغد، سلسلة الكتاب الفضّي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1958.
3. الديوب، د. سمر: مجاز العلم. دراسات في أدب الخيال العلمي، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2016.
4. سكولز، روبرت وآخرون: آفاق أدب الخيال العلمي، ترجمة حسن حسين شكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996.
5. الشريف، نهاد: بالإجماع: اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990.
6. عزام، محمد: خيال بلا حدود، طالب عمران رائد أدب الخيال العلمي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000.
7. علوش، د. سعيد: معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
8. عمران، د. طالب: فضاء وحيد كالعلم.
9. عمران، د. طالب: نداءات الأرض الحزينة، جامعة دمشق، 2015.
10. عمران د. طالب: الأزمنة المظلمة، دار الفكر العربي المعاصر، دمشق، 2003.
11. عياد: د. محمد عبد الهادي وعياد، د. كوثر: أدب الخيال العلمي، جامعة دمشق، 2015.
12. غايتينو، جان: أدب الخيال، ترجمة ميشيل خوري، دار طلاس للدراسات والنشر، 1990.
13. وهبي، د. مجدي، والمهندس، كامل: معجم مصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت 1979.
14. يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.

Sources & References

- 1- Alloush, Dr. Saeed, *Dictionary of Contemporary Literary Idioms*, Dar Al-kitab Al-Lubnani, Beyrouth.
- 2- Ayaad, Dr. Mohammad Abdulhadi, Dr. Kowthar, *Science Fiction*, Damascus University, 2016.
- 3- Azzam, Mohammad *Boundless Imagination: Talib Omran, Pioneer of Science Fiction*, Dar Al Fikr, Damascus, 2000.
- 4- All-Dayoub, Smar, *Studies in Science Fiction*, Syrian General Organization for Book, Ministry of Culture, Damascus, 2016.
- 5- Gatenyo, Jean, *Literature of Imagination*, trans., Michelle Khoury, Dar Tlass for Studies & Publication, 1990.
- 6- Al-Hakim, Tawfic, *Journey to Tomorrow*, Series of Silver Book, Arab Group for Printing and Publication, Cairo, 1958.
- 7- Omran, Talib, *Space, Lonely as a Dream, Calls of Sad Land*, Damascus University, 2015.
- 8- Scaly, Robert, et.al., *Horizons of Scientific Fiction*, Trans., Hasan Hussein Shukry, General Egyptian Organization for Book, Cairo, 1996.
- 9- Al-Sharif, Nuhad, *Consensus*, Union of Arab Writers, 1990.
- 10- Al-Tellawi, Dr. M. Naguib, *Science Fiction Stories in Arab Literature*, Dar Al-Mutanabbi, Paris and Beyrouth.
- 11- Wahbi, Dr. Majdi and Kamel Al-Muhandes, *Dictionary of Arabic Terms in Language & Literature*, Lebanese Library, Beyrouth, 1979.
- 12- Yaqteen, Saeed, *Analysis of Narrative Discourse*, Arab Cultural Centre, 3ed edition, Beyrouth, 1997.